



الحضارات لا تستقيم إلا بالقيم والأخلاق، ولا يمكن للتكنولوجيا وحدها أن تنشيء حضارة، بل إن سوء الأخلاق سبب من أسباب سقوط الحضارات على المستوى القيمي والثقافي والتربوي مهما تقدمت مادياً، فبناء الإنسان قبل بناء المادة.

وأكثر ما يثلم الأخلاق وينقض القيم الفاضلة ويسيء إلى المرء، سوء لسانه، وكثيراً ما حذرنا ديننا الحنيف من خطايا اللسان وأمراضه، حتى بين أن خطره على المرء يودي به إلى المهلكة، ففي الحديث: "وَهُل يَكُبُّ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إِلَّا حَسَادُ أَسْتَنْتَهُمْ" الترمذى!

ويصف النبي صلى الله عليه وسلم المسلم فيقول: "لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالظُّنُونِ وَلَا بِاللَّعَانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ" رواه أحمد، وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلَا يَدْخُلُ رَجُلًا الْجَنَّةَ لَا يَأْمُنُ جَارَهُ بِوَاقِفَهُ" رواه الإمام أحمد.

وبين سبحانه أن هناك حساباً دقيقاً على كل ما يتلفظ به المرء من المساوى، قال سبحانه "مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ".

وقد انتشر بين الناس مع كل أسف الاستهانة بالطعن في غيرهم، في سيرتهم وأعراضهم، يتحدثون عنهم بكل نقية، بدليل وبغير دليل، حتى صار الطعن في الأعراض شيئاً هيناً يسيراً على الألسنة.

ما زاد خطورة الأمر أن هذه الصفة الذميمة قد تسربت إلى بعض المتنبيين، بل وبعض طلبة العلم، فقد صار بعضهم لا يدقق في كلماته، فقد يرمي هذا أو ذاك بكلمات هي في ذاتها محمرة منكرة، وليس معه ثم دليل سوى غضبه منه أو معرفة بعض أخطائه وسقطاته!

الصالحون يحرصون دوماً على تنمية وتهذيب كلماتهم كما يحذرون أشد حذر من الواقع في أعراض الناس، بل يكبحون

جماع ألسنتهم و ويهدبون مسيرة نفوسهم، فيسترون العاصي، ويدعون بالتوبة لكل مذنب، وينصحون الجاهل، ويصبرون على الغافل، ولا يطعنون في سيرة أحد أو عرضه.

وإنما يستطيع المؤمن الصالح ذلك دون غيره إذ إنه قد ربي قلبه وهذه طهره ونقاوه من أمراض الحسد والحدق والبغضاء لآخرين، كما طهره من رغبة العلو على الناس والتفاخر بينهم أو الرغبة في الظهور عليهم وإسقاطهم.

إن طهارة القلب إذن هي الأساس في الاتصاف بهذه الصفة الكريمة، صفة أشراف هذه الأمة، الذين يتقربون إلى الله سبحانه بطهارة قلوبهم وبحسن ظنهم، وبنقاوة نفوسهم من الغل والطمع.

الأساقف هم الذين يتخذون من أعراض الناس هدفاً للطعن والانتقاد، في ذات الوقت الذي يحملون أنفسهم ويزينونها بالكذب والزور.

لقد عنيت هنا بتذكرة مختصرة بالتوجيه الإيماني على لسان النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح في التحذير من هذا المسلك الشائن الذي لا يليق بالمؤمنين بحال:

فالعرض بعمومه كما قال ابن قتيبة : " هو موضع المدح والذم من نفسه أو سلفه أو من نسب إليه و ما يصونه من نفسه وحسبه "

فكل ما يحرص الإنسان على أن يصونه هو عرض بالمعنى العام الشامل، وبالتالي فكل ما يشين ما حرص المؤمن على صيانته هو اعتداء على عرضه، سواء أكان ذلك عبر انتقاد في سيرته أو ذم في شأنه أو شأن من يعول من أهله وزوجه وولده او صفة من صفاته.

قال السعدي في تفسير قوله تعالى "ولا تجسسوا" : "أي لا تفتشو عن عورات المسلمين ولا تتبعوها واتركوا المسلم على حاله واستعملوا التغافل عن أحواله التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي".

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم مقام الأخوة الإيمانية والمناهي التي يجب أن يحذرها المؤمنون بين بعضهم بعضاً بما لا يدع لأحد سبيلاً إلى إساءة، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تحسدوا، ولا تناجحوا، ولا تبغضوا، ولا تدبروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحرقه، التقوى ه هنا - ويشير إلى صدره ثلث مرات -، بحسب أمرئ من الشر أن يحرق أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه" رواه مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه) متفق عليه.

كما بين صلى الله عليه وسلم العائدة المشينة للواقعين في أعراض الناس، فقال صلى الله عليه وسلم : "إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق" رواه أبو داود.

بل زاد الأمروضوحاً وزاد البيان أثراً، فعن أنس رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: " لما عرج بي مررت بقوم لهم أطفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم" رواه أبو داود.

إن الواقع في سير الناس وأعراضهم لهو الخسران الحق و في الدنيا والآخرة، فهو لا يبقى فضيلة ولا يثبت بركة، بل يأكل

الحسنات ويزري بالمرء ويعرضه لغضب الرحمن الرحيم وعقابه، فيأتي يوم القيمة مفلساً تمام الإفلاس..

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتدرون ما المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتى يأتي يوم القيمة بصلة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقدف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار" أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" رواه البخاري .

إنها مكرمة في ذاتها أيضاً، وعبادة كريمة، وصفة مشرفة ولاشك، أن ترد عن عرض أخيك وفتداه عنه، وتنازع عن عرضه وسيرته، إنها صفة المروءة وشيمة الرجلة وبشارة لحسن المال: فقد نقل ابن المبارك في الزهد قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا يعجبكم من الرجل طنطنته، ولكن من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس فهو الرجل".

وأورد ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة قول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس»، وعن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيمة" رواه الترمذى

المسلم

المصادر: